الخطابة النبوية وخطابة الخلفاء

توطئة:

بعد ان انتصر العرب في جاهليتهم للشعر لاعتبارات حياتية خاصة تنافسوه واحتكموا في جودته واسلموا إليه حل مسائلهم واهتماماتهم الكبرى، حل بينهم الدين الجديد واستوجب بذلك أمر التغيير في الطباع والقناعات والاهتمامات بل وكل طريقة الحياة فتأكد من ضرورة تغيير الأدوات والآليات.

وأولى تلك الآليات والمقومات التي طالها التغيير والتحوير كان الشعر الذي آثر الإسلام حصر قيمته وتغيير النظرة إليه وتأكد من مناسبة آلية الخطابة للمرحلة الجديدة والتي أصبحت أهم وسيلة استخدمت في شرح القيم والمبادئ التي يدعو إليها الإسلام فتولت الخطابة عبء تبليغ الرسالة وشرح مبادئ الدين الجديد وكان ذلك سببا قويا في نهضة الخطبة وتوليها زمام التواصل الإنساني في هذه المرحلة الجديدة فكان بذلك ظهور كوكبة من مجيدي الخطبة قد اخذوا مبادئها من المعلم الأول لها ألا وهو الرسول الاكرم محمد ﷺ وفي هذه المرحلة يمكن اعتبار الخطابة فنا قائما على وعي تام بممارسة هذا الفن الأدبي على عكس ما كانت عليه الممارسة الجاهلية في كون خطبائها كانوا يتعاطون الخطبة على انها مما تقتضيه الظروف وما تدفع إليه مسائل الحياة الكبرى حينها لذلك لم يكن في تعاطيها أي إحساس بالوعي المنتج للنصوص.

اما في عصر صدر الإسلام فقد وضع للخطبة خطها المنتج ومنهجها التنظيمي فوضع لها مقدمة وخصها بموضوع رئيس واشفعها بالادلة والشواهد ومارس فيها مخاطبة العقول والاقناع عن طريق الأمثلة والمحاورة وضمنها الآيات لفظا وتوظيفا فكانت من جوامع كلمه وبليغ مآثره لغة ومعنى واقناعا ، يقول رسول الله يوم حنين:

يا معشر الأنصار، مقالة قد بلغتني عنكم وموجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى لله ولرسوله المن والفضل، فقال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله؟ ولله ولرسوله المن والفضل. فقال: أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصُدِقتُم: أتيتنا مكذباً فصدقناك ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة

من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا }

وهكذا انبرى ﷺ إلى وسيلة الخطابة في الدعوة للرسالة وتبليغ الإسلام خاطب المشركين بأروع الكلام وناداهم بابلغ القول وصانعهم في كلامه بالبلاغة الصافية التي سلبت من فطاحل اللغة فيهم اعترافا بعجز الوصف والطعن والمجادلة ومقارعة الحجة بالحجة فضاقت منهم الصدور ووهنت في المحاججة الهمم والقدرات بعد ان كانوا فيها القدوة والنموذج والمثال.

أيها الناس إنّ لنسائكم عليكم حقّاً وإنّ لكم عليهن حقّاً لكم عليهن أن لا يُوطِئن فَرْشَكم غيركم ولا يُدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلاّ بإذنكم ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تَعْضُلوهن وتَهْجروهن في المَضاجع وتضربوهن ضرباً غير مُبرِّح فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رِزقُهن وكسوتهن بالمعروف وإنما النساء عندكم عَوَار لا يملكن لأنفسهن شيئاً أخذتموهن بأَمانة الله واستحلَلتُم فُروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً.

أيها الناس إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئ مالُ أخيه إلاّ عن طِيب نفسه ألا هل بلّغت اللهم أشهد. فلا تَرْجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تَضلّوا: كتابَ الله ألا هل بلَّغت اللهم أشهد. أيها الناس: إنّ ربكم واحد وإن أباكم واحد كلُكم لآدم وآدم من تراب أكرمُكم عند الله أتقاكم ليس لعربيّ على عجميّ فَضل إلاّ بالتقوى ألا هل بلّغت قالوا: نعم قال: فَلْيبلغ الشاهد منكم الغائب. أيها الناس إن الله قد قَسم لكل وارث نصيَبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية في أكثر من الثّلث والولدُ للفراش وللعاهر الحَجر من ادَعى إلى غير أبيه أو تولّى غَير مواليه فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عدلاً. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد أخذت الخطابة من رعايته ما مكنها من ان تكون الأداة الواحدة في الكلام وزادت بين فكيه ﷺ في التطور والتميز و راح يغذيها بكل جماليات القرآن الكريم نصا واقتباسا حتى استوت على عرش زعامة الإنتاج الأدبي وزحزحت عنها الشعر، وزادت تألقا مع مسار الخلفاء

الراشدين على نهج نبينا ﷺ في بنائها وإحكام سبكها حتى لقب العصر بالعصر الذهبي للخطابة.

وعلى خطى الحبيب سار الخلفاء تباعا لسنته ﷺ فكانوا يحسنون إلى الخطابة في كل موضع وبكل موضوع ظهر ذلك منذ أولى الممارسات كخطبة أبي بكر الصديق يوم وفاة الرسول في موقفة السقيفة الشهيرة وخطبه رضي الله عنه في جيوش الفتوحات يحضها على الاهتمام بنشر الدين وتعليم مبادئه قبل الانتصار في المعارك والمواقع.

قال أبو بكر: أيها الناس نحن المهاجرون أول الناس إسلامًا، وأكرمهم أحسابًا، وأوسطهم دارًا، وأحسنهم وجوهًا –أي مكانة– وأكثرهم ولادة في العرب، وأمسهم رحمًا برسول الله ﷺ، أسلمنا قبلكم، وقُدِّمنا في القرآن قبلكم، فقال تبارك وتعال{ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان} فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين، وشُركاؤنا في الفيء، وأنصارنا على العدو، أويتم وواسيتم، فجزاكم الله خيرًا، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، ولن يُعرف هذا الأمر –أي أمر الخلافة– إلا لهذا الحي من قريش فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله.

وتولى عمر بن الخطاب بعده الخلافة ودامت أطول من فترة أبي بكر فأكثر الخطابة في المناسبات الدينية كالجُمع والأعياد والحج بل كان يدعو إليها مع كل حادث يأتيه بخبر جديد أو طارئ يدفعه إلى تعليم معالم الدين وأركانه. وها هو يقول في إحدى خطبه رضي الله عنه، بعد أن حَمِد الله وأثنى عليه: أيها الناس: مَن أراد أن يَسْأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب ومَن أراد أن يَسْأل! عن الفرائض فَلْيأت زيدَ بن ثابت ومَن أراد أن يَسأل عن الفِقْه فَلْيأت مُعاذ بن جَبَل ومَن أراد أن يَسْأل عن المال فَلْيأتني فإن الله جعلني له خازناً وقاسماً. إني بادئ بأزواج رسول الله ﷺ فمُعطيهن ثم المهاجرين الأوَلين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم أنا وأصحابي ثم بالأنصار الذين تَبوءوا الدارَ والإيمان مِن قبلهم ثم مَن أسرع إلى الهِجرة أسْرعَ إليه العطاء وجمَن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء. فلا يلومنَّ رجل إلا مُناخ راحلته. إني قد بَقيت فيكم بعد صاحبي فابتليتُ بكم وابتُليتم بي وإني لن يَحْضرني من أموركم شيء فأكِله إلى غير أهل الْجَزاء والأمانة فلئنْ أحسنوا لأحسننَ إليهم ولئنْ أساءُوا لاُ نكّلَنَ بهم.

وفي هذا العهد كانت الخطابة سفير الإسلام في اسقاع البلاد المفتوحة فزادت مع الممارسة دقة وتحديدا وتطورا وسموا في مقاصدها وأهدافها فشاعت على ألسن القادة والفاتحين وبقايا الناهلين من حوض النبي محمد في حياته والمستمسكين بعرى هديه الوضاء.

ثم كانت فتنة العهد الراشدي فظهرت على ساحة الخطابة ألسن أججت نار الفتنة وأوقدت زمهرير الفرقة والصراع حتى تناحر المسلمون بعد أشواط من الشحناء الخطابية فعرف الفن فيها تشعبا وتزاور الفرقاء عن الحق وحادوا عن جادة الصواب حتى ابلغتهم مواطئ القتال وسفك الدماء ومن أشهر خطباء هذه المرحلة وفر بن زيد وسعيد بن عبيد الطائي والحسن بن علي وعمار بن ياسر ومعاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد.

ومن أفضل نماذج تلك المرحلة ما قاله الإمام علي بن أبي طالب موضحا ضرورة تقبل ما فرضته الظروف عليه من قتال كرهته طبيعته المسالمة وفرضته عليه دوافع غالطت الناس في وجوب القتال وتكفير الثلة الأولى للمصدقين بالدين الإسلامي يقول:

الحمد لله الذي لا يبرم ما نقض، ولا ينقض ما أبرم. ولو شاء ما اختلف اثنان من هذه الأمة ولا من خلقه، ولا تنازعت الأمة في شيء من أمره، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله. وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار حتى لفت بيننا في هذا المكان، فنحن من ربنا بمرأى ومسمع، فلو شاء لعجل النقمة ولكان منه التغيير حتى يكذب الله الظالم ويعلم الحق أين مصيره، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال، وجعل الآخرة عنده دار [الجزاء] والقرار، (ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى). ألا إنكم لاقون العدو غدا إن شاء الله .فأطيلوا الليلة القيام، وأكثروا تلاوة القرآن، واسألوا الله الصبر والنصر، وألقوهم بالجد والحزم، وكونوا صادقين.

ووقف سبطه الحسين موقف اختبار في الدفاع عن الإسلام وحرمته بعد أن ناداه الواجب للوقوف لنصرته دين الله وجده أفضل الخلائق فخاطب متوجسا شيعة في العراق من تخاذلها في نصرته ومؤازرته يقول:

أيها الناس، إن رسول الله ﷺ قال:

«من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله ﷺ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقا على الله أن يدخله مدخله».

ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحق من غير، وقد أتتني كتبكم، وقدمت على رسلكم ببيعكم، ألا تسلمونى ولا تخذلونى، فإن تممتم على بيعتكم، تصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن على، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسى مع أنفسكم، وأهلى مع أهليكم، فلكم فىّ أسوة، وإن لم تفعلوا، ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتى من أعناقكم، فلعمرى ما هى لكم بنكر. لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم، والمغرور من اغتر بكم،فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغنى الله عنكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

وكان للخَطابة في ذلك العصر خصائصها الفنية الكثيرة، ومنها :

-1عرفت خطبة في عصر صدر الإسلام صورة مختلفة عن نظيرتها قبل ذلك حسن الإعداد والسبك والتنظيم، حيث أنها عرفت على رسول الله التبويب فقد خصها بمقدمة الحمد لله والثناء على صاحب الأفضال المطلقة على الإنسان، والصلاة والسلام على رسوله مع إعلان الشهادتين توثيقا لقيمتهما في كل بدءٍ لأمر هام ثم صلب الموضوع ويشمل فكرة وغرض الخطبة بما يتطلبه الظرف من آيات القرآن والشواهد ثم تختم بخاتمة دعاء واستجداء لمن لا يتم أمر الا برضاه وتقديره.

-2وكما كانت الخطب في صدر الإسلام، فإن خطب هذا العصر يغلب عليها كلِّها الإيجاز المعتدل، ويقل فيها التوسط القريب من الطول، وتندر فيها الخطب المسهبة المطولة.

-3وقد تأثر كثير من الخطباء في خطبهم بالقرآن الكريم، فكثر اقتباسُ آيات من القرآن، ووضْعُها المواضع الملائمة لها من الخطبة، كما كان بعض الخطباء يعمدون إلى استمداد بعض مضامين خطبهم من القرآن الكريم.

-4وتمتاز الخَطابة بمشابهتها الشعر في إبراز المعاني والأفكار، وتوضيحها وتجسيمها في قوالب من التخيل والتضاد، كالتشبيه والاستعارة، والكناية، وعرض الصور المتضادة، والطباق، ونحوها.

-5وأما التعبير الخطابي فيتسم بقوة العبارة وجزالتها، وقصر الجمل، والعناية بالموقع والرنين.

6- وأطلقوا بعد ذلك على الخطبة أسماء فاعتبروا ما كانت خالية من المقدمة بتراء وما خلى متنها من أي القرآن صمعاء وأطلقوا على التي تكون كاملة العناصر والآليات خطبة عصماء.

ولقد اشتهر في هذا العصر في الخطابة رسول الله ﷺ ثم من اقتبس من هدي كلامه كالخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابنه الحسين ومعاوية بن أبي سفيان و أبو موسى الأشعري وغيرهم كثير.